التأليف الديني لدى الفقهاء المالكية من خلال كتاب تاريخ الجزائر الثقافي "مؤلفات الفقيه عبد الكريم الفكون نموذجا"

Religious authorship by Maliki scholars in Algeria through the book of "TÂRÎKH AL-DJAZÂIR AL-TAQÂF scholars is AL Fakih AL Maliki Abd AL karim ELFAKON

ط.د عزوز هناء*

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

azzouz-hana@univ-eloued.dz

د. الجباري عثماني

Otmani0037@gmail.com

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

تاريخ الاستلام: 2022/09/05 تاريخ القبول 2022/10/09 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص:

يعتبر موضوع التأليف الديني من الموضوعات التي لقيت اهتماما بالغا لدى الفقهاء المالكية خلال الفترة العثمانية نظرا للأوضاع المزرية التي شهدها المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة من انحلال فكري وانتشار للعادات السيئة التي ألصقت بالدين. ولذلك انشغل معظم الفقهاء في كتابة العديد من الكتب ذات الطابع الديني بهدف مخاطبة العقول وتصفيتها من الخرافات والبدع ومن أهم هؤلاء الفقهاء نجد الفقيه المالكي عبد الكريم الفكون.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: التأليف الديني؛ التصوف؛ الكريم الفكون؛ الانحلال الفكري؛ الفقهاء

Abstract

The subject of religious authorship is one of the topics that received great attention from Maliki scholars during the Ottoman period, owing to the dire conditions in Algerian society during that period such as the intellectual decay and the spread of bad customs that have been attached to religion. Most scholars were therefore engaged in writing several books of a religious nature with a view to addressing minds and eliminating superstition and heresy. One of the most important of these scholars is Al-Fakih Al-Maliki Abd Al-Karim Al- Fakun

key words: Religious authorship; mysticism; Abd al-Karim al-Fakun; intellectual decay; scholars

مقدمة:

اهتم الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالإسهام العلمي والنتاج المعرفي لتاريخ الجزائر الذي كلله بمعلمه تاريخ الجزائر الثقافي فهو يعتبر أهم مؤلف يكشف مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية عبر العصور

احتوى هذا الكتاب على العديد من المواضيع التي تخص الثقافة في الجزائر ولعل أهم الموضوعات التي تطرق إليها إشكالية التأليف من خلال ذكره لأهم العلماء ومؤلفاتهم التي ظهرت في العهد العثماني، وإبراز الدوافع التي دفعت إلى تأليف كل كتاب.

كما شملت هاته المؤلفات جل المواضيع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولم يقتصر على دراسة المواضيع التاريخية فقط بل برزت في هذه الحقبة مؤلفات دينية كان لها الأثر البالغ في ارشاد وتوعية المجتمع في ظل الأوضاع المزرية التي آل إليها المجتمع الجزائري. وأخذ الفقهاء المالكية على عاتقهم هذه المهمة باعتبار أن المذهب المالكي هو الأكثر اتباعا في الجزائر لذلك كان للفقهاء مكانة لدى أفراد المجتمع لأنهم كان لهم دور في جميع الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

لذلك لعب الفقهاء ولا سيما الفقهاء المالكية دورا هاما في الحياة الثقافية من خلال تعليم الأطفال في المساجد والمدارس بالإضافة إلى تأليف العديد من الكتب لإرشاد المجتمع إلى الطريق الصحيح ومحاربة البدع والخرافات ومن بين الفقهاء الذين برزت لهم مؤلفات دينية نجد الفقيه عبد الكريم الفكون.

كل هاته الظروف تجعل من القارئ يتساءل على تأثير المؤلفات الدينية على الحياة الفكرية عامة والدينية خاصة في المجتمع الجزائري.

وللإجابة على هذا التساؤل اعتمدت على المذهب التاريخي التحليلي لإبراز دوافع تأليف هذه المؤلفات ومعرفة محتواها ومميزاتها وتأثيرها على المجتمع.

1- حركة التأليف في الجزائر:

1-1. التعريف بالتأليف:

لغة: يقال ألفت الشيء، أي لزمته فهو مؤلف مألوف، وآلفه الضياء الرمل إذ ألفتها فقيل:

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في متنها يتوضح.

ويقال أيضا: ألفت الشيء: وألفت فلانا إذ أنست به، وألفت بينهم تأليفا، إذا جمعت بينهم بعد تفرق، وألفت الشيء، وصلت نمضه ببعض، ومنه تأليف الكتب[1]

ويقال ألفت بينهم ومنه: الألفة ويقال للمألوف ألف وأليف، وقال تعالى " إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ "[2] قال تعالى" **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** "[3]

والمؤلفة: ما جمع من أفراد مختلفة، ورتب ترتيبا قدم فيه ما حقه أن يقدم وأُخر فيه ما يجب أن يؤخر.[4]

وجاء في المعجم المعاصر للغة العربية: " ألف الكتاب كتبه، جمع مادته وصاغ أفكاره".[5]

اصطلاحا: سما عبد الرحمن ابن خلدون العلم بالبيان، ويقول إن التأليف هو بيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع (يعني بالوضع) على الألفاظ النطقية حروفا بحروف وكلمات بكلمات، فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي (النطقي)، ويدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف فهو أشرفها (أي العلم).[6]

1-2التأليف والمؤلفين:

يواصل ابن خلدون الحديث عن التأليف ولكن هذه المرة ربطه بالمؤلفين ليكتمل المعنى في قوله: "وأهل الفنون معتنون بإيداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق من الكتابة لتعم أو تعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر وهؤلاء هم المؤلفون"[7]

1-3. التأليف في الجزائر مطلع القرن 16

إن الثقافة في البلاد الإسلامية كانت تتركز على العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وعقائد وامتازت الجزائر في العهد العثماني، أنه أضيف إلى هذه الثقافة المذكورة انتشار الطرق الصوفية غربي البلاد وشرقها، وكان جل المنخرطين فيها من حفظة القرآن وممن لهم مبادئ فقهية وعقائدية كانت تميزهم عن العوام في سلوكهم الشخصي.

وكان في طليعة المثقفين في البلاد الفقهاء، وكانوا يتمتعون بالقيادة الروحية ويشاركهم في ذلك مشايخ الطرق الصوفية ومقدميها وبطبيعة الحال لم يكن بينهم وفاق.[8]

فقد أدت المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وانتشار الزوايا والأضرحة إلى نتيجتين خطيرتين هما: تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد ذلك بسبب نقل التعليم إلى الزوايا والاكتفاء بالحد الأدنى منه جافة ريفية ضيقة ويبرز هذا شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله في قوله:" ...بدل أن يلتف الناس حول العلماء المتنورين أصبحوا يلتفون حول شيخ أو مقدم زاوية تغلب على عقله الخرافة وعلى أحواله الزهد"

لذلك تميز العطاء الثقافي بالمحدودية التي أصبغت الحياة الفكرية وطابع الجمود الذي يعود إلى طبيعة الإدارة ونوعية الحكم ومواقف الحكام وإلى تأثيرات الفوضى والاضطرابات السياسية والاجتماعية فاظهر نقمته على العلماء من خلال بعدهم عن الثقافة واهمالهم الصفوة المتعلمة في الأمة.[9]

فاضطر أغلب العلماء بسبب ضيق الحال إلى الهجرة إلى المشرق للاستزادة من العلم وطلب الرزق عن طريق التجارة وامتهان الطب التقليدي، وهذا ما صوره عبد الرزاق محمد ابن حمادوش الجزائري في كتابه رحلة ابن حمادوش.[10]

فكل هذا يبرز أن المجتمع الجزائري شهد مرحلة من الانحلال الفكري وانتشار الكثير من العادات الدخيلة عن الدين الإسلامي الأمر الذي جعل العديد من الفقهاء أمثال عبد الرحمان الأخضري وعبد الكريم الفكون لتأليف العديد من المؤلفات الدينية لإرشاد المجتمع إلى الطريق الصحيح

2-التعريف بعد الكريم الفكون

2-1- مولده ونشأته:

هو عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم التميمي القسنطيني [11] ولد بقسنطينة سنة 988هـ/1580م وهي السنة التي توفي فيها جده عبد الكريم بن قاسم الفكون، وقد اكتسبت هذه العائلة شهرة واسعة وتمتعت بنفوذ مالي وسياسي حيث عرف عليها الانفاق والإحسان. تولى عدة وظائف عصره كالتدريس والإمامة والخطابة وهي وظائف تقليدية ووراثية في الاسرة لكن الوظيفة الأساسية التي لم يتولاها أحد من أفراد عائلته من قبل هي وظيفة أمير ركب الحجيج والتي احتفظت بها أسرة الفكون إلى غاية1838م حيث ألغت السلطات الفرنسية ذلك. أما تآليفه فهي كثيرة

تلقى عبد الكريم الفكون ثقافة علمية وفقهية وأدبية واسعة وكان ذو إطلاع واسع بالفقه المالكي بسبب تلقيه دروسا على كبار الشيوخ والأساتذة من أهمهم سليمان

القشي وعبد العزيز النفاتي الذي تلقى عنه الحساب والفرائض ومحمد الفاسي المغربي الذي قرأ عليه الإسطرلاب وبعض العلوم الأخرى ومحمد التواتي المغربي الذي تلقى عنه التفسير وشرح صحيح مسلم. وهذا ما أثر فيه وجعله يلجأ إلى التأليف فقد ألف الكثير من المؤلفات.

2.2. المؤلفات الدينية لعبد الكريم الفكون:

أ– منشور الهداية في حال من ادعى الولاية:

شهد المجتمع الجزائري أوائل العهد العثماني حالة من الانحلال الفكري وانتشار العادات السيئة فاضطر إلى تأليف هذا الكتاب ليظهر من خلاله مساوئ المنتسبين إلى العلماء والأولياء الصالحين من الطرق الصوفية ليبرز حقيقتهم [12]وهذا ما أبرزه في مقدمة كتابه:" .... رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تنكسر،

الجهل قد أظلت وأسواق العلم قد كسدت فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، أصبح صاحب أهل الطريقة وأعلام الزندقة على رأس اللائحة" من خلال مقدمة الكتاب يبرز لنا الفكون مدى انغماس أفراد مجتمع قسنطينة في اتباع الطرق الصوفية والابتعاد عن الشريعة الإسلامية.[13]

محتواه: يحتوي على أربعة أصناف من التراجم ولكن صنف فصل خاص به:

الفصل الأول: خصصه لذكر العلماء الصالحين الذي بلغ عددهم حوالي أربع وعشرون عالما ومصلحا.

الفصل الثاني: أدرج فيه الأفراد الذين تولوا منصب من المناصب الشرعية وهم غير أهل له والذين بلغ عددهم اثنان وعشرون باستثناء القليل الذين تتوفر فيهم شروط تولي التدريس والخطابة.

الفصل الثالث: عبارة عن تراجم لمن ادعى الولاية ووصفهم بالدجالين والضالين والمضلين وعددهم خمسة عشر.

أما **الخاتمة** فهي عبارة عن فصل رابع فخصصها لذكر الأصحاب والأحباب كالمقري ومحمد بن ناجي.

ب– محدد البستان في تحور إخوان أصحاب الدخان:

يعتبر محدد السنان في المرتبة الثانية من يعتبر محدد السنان في المرتبة الثانية من مؤلفات الفكون من حيث الأهمية وهو عبارة عن رسالة عالج فيها مسألة التدخين التي عالجها الكثير من المؤلفين في تلك الحقبة واختلفوا في حكمها ويعطي الفكون وصف لجلسات التدخين حيث يقول: "كان يجتمع الناس وفي وسطهم آلة التدخين يتداولون استنشاقها " وأشار الفكون في كتابه أنه استفتى مفتي مكة الشيخ خالد الزاوي وشيخ المالكية بمصر إبراهيم اللقاني وسلطان مراكش الشيخ أحمد بن سحنون فأجاب كل واحد منهم بالتحريم.[14]

ج– ديوان الفكون:

لم يكتب الفكون في النثر فقط بل تميز كذلك بكتابته لبعض القصائد الشعرية لكن شعره لم يكن فيه جديد لأن الفكون لم يكن قادرا على النظم لأنه كان يعاني من مرض خطير لذلك كان يقضي أغلب وقته في التفكر في الآخرة واقتراب الأجل وبدل أن يموت غما أخذ يدعو الله الشفاء ويتوسل إلى ذبك بالنبي صلى الله عليه وسلم.[15]

ولم يؤلف عبد الكريم الفكون منشور الهداية فقط في التصوف بل له أعمال أخرى جديدة بالذكر من ذلك قصيدة له في التوسل بالله سماها (سلاح الذيل في دفع الباغي المستطيل) أولها:

بأسمائك اللهم أبدي توسلا فحقق رجائي يا إلهي تفضلا

ويبدو أنه استعملها كدعاء عبد الشدة التي لحقته من بعض البغاة، ومن جهة أخرى وضع الفكون تقييدا بعد مرض أصابه لا يخرج محتواه عن شكر الله والتوسل إليه وللكون

نظم آخر سماه (شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض) وهو النظم الذي سماه أيضا (العدة في عقب الفرج بعد الشدة) وأوله:

بك اللهم مبدي طرا توسلي وفي كل أزماتي عليك معولي

وهو من النوع الأول من التوسل إلى الله بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأصحابه والتابعين والفقهاء والأولياء.

ويرى شيخ المؤرخين أن أهم عمل كتبه الفكون في هذا الجانب هو ديوانه الذي خصصه لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نظم عدة قصائد في هذا المعنى ورتبها على حروف الهجاء، مضمنا كل حرف من الحروف حروفا تقرأ من أول كل البيت في الحرف فإذا جمعت يخرج منها (اللهم اشفني بجاه محمد، آمين) وهو الديوان الذي رآه العياشي المغربي وأخبر أن الفكون قد كتب [16]عليه ما يمدح به عند الغمة، وساعة الغياهب المدلهمة، والتزم فيه مبدأ كل سطر حرفا كم حروف: الهي بحق الممدوح اشفني ،أمين وقال العياشي إن جملة ذلك خمسة وعشرون حرفا من كل قصيدة مثلها أبيات ، فقافية الهمزة مثلا تذهب هكذا:

أبدرا بدرت في الخافقين سعوده ونورا به الأكوان أضحت تلألأ

له في العلى أعلى العلى رتبة وفي مراقي ذرى العرفان قدما مبوأ

أضاء وجود الكائنات ببعثه وطلعته الغرا من الشمس أضوأ

ويبقى هكذا إلى أن يصل إلى خمسة وعشرون بيتا في حرف الهمزة، ونفس عدد الأبيات في خرف الباء، ومثله في كل حرف من الحروف الهجائية، وقد أخبر العياشي أيضا أن الفكون قد انتهى من هذا الديوان سنة 1031 أي عندما كان عمره ثلاثا وأربعين سنة فمساهمة الفكون في باب التصوف إذن مساهمة كبيرة سواء نظرنا إليه كمنتج أو ناقد لأصحابه.[17]

3–. خاتمة:

لقد كان لحركة التأليف في العهد العثماني تأثير بالغ على المجتمع بسبب الأوضاع التي آلت إليها الجزائر فكانت هذه المؤلفات بمثابة وسيلة للإصلاح والإرشاد في زمن عمت فيه الطرق الصوفية حيث أصبح كل من يحفظ القليل من القرآن أو كتب يدعي بأنه عالم ويبدأ الناس باتباعهم والرغبة في نيل رضاهم بشتى الطرق والأساليب.

– حاول العديد من الفقهاء حل هاته المشكلة بتأليف العديد من الكتب ومن بين هؤلاء الفقهاء الفقيه المالكي عبد الكريم الفكون الذي قال بتأليف العديد من الكتب والقصائد الشعرية لتقديم الموعظة والنصح والإرشاد

– . كما لعب الفقهاء دورا مهما في الدعوة إلى الوحدة والاستقرار السياسي وكان لهم تأثير على مجريات الأحداث.

– كما تميزوا بدورهم المتميز في الحياة الاجتماعية من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحرص الشديد على المصالح العامة للمجتمع.

– كما أسهم الفقهاء في حل المشكلات التي يعاني منها المجتمع وذلك من خلال إسهامهم في الأعمال الخيرية والتخفيف عنهم في الأزمات السياسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لا نجد للفقهاء دور في الفترة الحالية مع تعاظم المشاكل التي يعاني منها افراد المجتمع أم أن دور الفقهاء اقتصر على الأمور الدينية فقط؟

أتمنى أن يلعب الفقهاء دورهم في الوقت الحالي لتخفيف العبء على الدول التي أصبحت غير قادرة على حل الأزمات لوحدها.

الهوامش

[1] محمد الأزهري: **تهذيب اللغة**، ج 15، إع: إبراهيم الأبياري، دار العربي، 1977م، ص 378.

[2] آل عمران / 103.

[3] الأنفال / 63.

[4] الراغب الأصفهاني: **مفردات ألفاظ القرآن**، إع: صفوان عرفان داوودي، دار القلم، ط4، دمشق، سوريا، 1430 هـ/ 2009 م، ص 81.

[5] احمد مختار عمر وآخرون: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، مج 1، عالم الكتب للسند والتوزيع والطباعة، ط1، القاهرة – مصر، 1429 هـ/2008م، ص 109.

[6] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المرجع السابق، ص 532.

[7] نفسه.

– حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ص35.

[8] ناصر الدين سعيدون والشيخ المهدي بعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 196.

[9] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1(1500–1830) . دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1984، ص48.

[10] حنيفي هلالي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر ط1.2008. ص 257،

[11] عبد المنعم قاسمي: أعلام التصوف في الجزائر .

[12] نفسه، ص 258.

[13] أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 2008، ص 19.

[14] أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المرجع السابق، ص 356.

[15] بوخلوة حسين: عبد الكريم الفكون وانتاجه الفكري، جامعة تيارت، الجزائر. دت، ص 72.

[16] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 522.

[17] نفسه، ص524